الرصف التركيبي عند علماء العربية المتقدمين

أ.م.د.خالد أحمد هواس*

المستخلص

في هذا البحث أحاول أن ألقي نظرة على مصطلح من المصطلحات التي شاعت حديثا في دراسات اللسانيين وأول من تناول المصطلح الدكتور تمام حسان وتكلم على الرصف النحوي ، وأردت أن أتناول الجانب الثاني من جوانب الرصف وهو الرصف اللفظي الذي يعنى بنظم الألفاظ وتأليفها ورصفها مع العناية بالدلالة، وأبين دور العلماء القدامى في هذا الموضوع ، فوجدت أنه كان للعرب المسلمين فضل السبق في الحديث عن تساوق الكلام وانسجامه وتآلفه وتلاؤمه، وذكرت آراء أبرز النحاة واللغويين والنقاد.

Abstract

In this research, I try to take a look at one of the terms that were recently popularized in the studies of linguists, and the first to deal with the term was Dr. Tammam Hassan, who talked about grammatical collocations. And I show the role of ancient scholars in this subject, and I found that the Muslim Arabs had the advantage of taking precedence in talking about the consistency, harmony, harmony and compatibility of speech, and I mentioned the opinions of the most prominent grammarians, linguists and critics.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد: فالرصف من المصطلحات الحديثة التي شاعت على ألسنة المحدثين الذين يعتنون بترجمة الأعمال اللغوية والأدبية الغربية ، ومن الباحثين من قسم الرصف على قسمين : الرصف النحوي والرصف المعجمي، والرصف النحوي تناوله الدكتور تمام حسان، وقدم له تعريفًا محددًا، كما أنه حدد الوسائل التي يتحقق به.

هذا الرصف، أما النوع الثاني فقد أشار إليه فيرث[1]، وهو أول من أسس لهذه الظاهرة. بحثت في آراء اللغويين والباحثين المحدثين عن تسمية مناسبة لهذا النوع من الرصف الذي تناوله القدماء، فلم أجد أنسب من: (الرصف التركيبي)، وأعني به:التلاؤم والانسجام ولم أسمه بـ(المعجمي) لأنه لا يكتفي بتناول الوحدات المعجمية ، بل يعتني بالدلالة التي تحيط بالألفاظ في حال ترتيبها ورصفها فهذا

* جامعة كركوك–كلية التربية للعلوم الانسانية

(١) ينظر: مصطلح الرصف في الدرس اللغوي/٤١٢

الرصف الذي عني به علماؤنا الأوائل لم يكن مقتصرًا على الشكل والترتيب والانسجام بين الوحدات اللسانية فقط ، بل كان يولي قضية المعنى أهمية كبيرة، فضلًا عن عنايتها بالترتيب النحوي ولم أسمه بالرصف النحوي الذي تناوله الدكتور تمام حسان والذي يشتمل على القرائن المعروفة كالتضام والربط وغيرها.

وقد تتبعت أقوال أبرز العلماء القدامى، من نحاة ولغويين ونقاد، وبلاغيين فوجدت أنه كانت لديهم إشارات واضحة إلى ضرورة استقامة الكلام، من حيث الشكل والمعنى، فسيبويه كان يرى أن كل جملة صحيحة نحويًا تعد جملة مستقيمة ولكن الحكم على هذه الاستقامة بالحسن او بالكذب يتعلق بالمعنى الذي تفيده عناصر الجملة عندما تتراصف وتترابط نحويًا، وكان للنقاد رأي مثل بشر بن المعتمر والجاحظ وأول من استعمل مصطلح الرصف هو الجاحظ في كتابه: البيان والتبيين، حيث وصف أبياتا من شعر العجاج وشعر الطّرمّاح وأشعار هذيل بذلك، وانتقلت بعد ذلك إلى أثر أبي سعيد السيرافي الذي أكد على ضرورة الربط والرصف بين الألفاظ، وذلك في مناظرته المشهورة مع متي بن يونس.

ومن الذين استعملوا هذا المصطلح أبو هلال العسكري، في كتابه:(كتاب الصناعتين)،وذكرت أثر أحمد بن فارس الذي بين في كتابه : (متخير الألفاظ)، أن سبب اختياره لهذا الاسم هو اختيار الألفاظ المناسبة في المكان المناسب لها، وسقت على ذلك أمثلة من كتابه، وانتقلت بعد ذلك إلى عبد القاهر الجرجاني الرائد في قضايا النحو والدلالة الذي جعل الرصف ينضوي تحت مصطلح النظم ، ولا أدعي أني قد ابتكرت هذا المصطلح من عندي بل سبقني في الإشارة إليه عدد من الباحثين ابتداءً من الدكتور تمام حسان ، ومحمد علوش في بحثه الموسوم ب : **(مصطلح الرصف في الدرس اللغوي)** ، وعلوش كمال **في بحثه:** (نظرية الرصف وآفاق بناء معجم تاريخي للتعبير الاصطلاحي العربي)، والحمد لله رب العالمين.

الرَّصفُ في اللغة والاصطلاح : الرصف لغة : ضمُّ الشيءِ بعضِه إلى بعضٍ ونظْمُه قال الخليل: ((الرصف حِجارةٌ مَضمومَةٌ بعضها إلى بعض في مسيل.... ورَصَفَ قَدَمَيْه أي صَفَّهما، وضَمَّ إحداهما الى الأخرى)) [(١)]، والرَّصَفَة: الحجارة التي رصف بعضها إلى بعض، فيجمع فيها ماء المطر ، وتجمع على الرِّصَاف[(٢)] قَالَ بِشْرُ بْن أَبِي خازِم:

كأن مدامة من أذرعاتٍ كُمَيتاً لونها لون الرُّعَافِ

(١) العين ١١/٧

(٢) ينظر: تهذيب اللغة ١١٥/١٢

على أنيابها بغريض مزنٍ أحالته السحابة في الرِّصَافِ [١]

وجاء في معنى الرصف أنه الانتظام والاستواء: ((ورُصِفَت أسنانُه رَصْفاً ورَصِفَت رَصَفاً فهي رَصيفَةٌ ومُرْتَصِفَةٌ تصافّتْ في نَبْتِها وانْتَظَمَتْ واسْتَوَتْ ورَصَفَ الحجرَ يَرْصُفُه رَصْفاً بَناهُ فَوَصَلَ بعضَه ببعضٍ)) [٢]، فيظهر من ذلك أن الرصف معناه الضم والانتظام والاستواء مهما كان نوعه سواء أكان حجرًا أم غير ذلك حتى يشكل بهذا الانتظام بناء محكمًا منسجمًا[٣].

وأما عن معناه الاصطلاحي فيبدو أن النحاة لم يستعملوا مصطلح الرصف الذي يبين صورة بناء السياق سواء في حدود الجملة أو ما فوقها، إلا ما نراه في بعض أعمال المتأخرين مثل كتاب:(رصف المباني في شرح حروف المعاني) للمالقي (ت٧٠٢هـ) [٤].

ويذكر د. تمام حسان السبب في عدم استعمال النحاة لهذا المصطلح قديمًا أنهم كانوا أكثر ميلًا إلى التفكيك منه إلى التركيب، فالشاغل الأول للنحوي أن يعرب الجملة كلمة كلمة وأن يعنى بوظائف الكلم في إطار الجملة المفردة، ثم لا يتعدى الجملة إلا بعطفها أو بعطف عليها، أو استدراك منها أو تفسير لها أو بجعلها جوابًا لجملة ذات جواب كالشرط والقسم إلخ[٥].

ولكني وجدت عند النحاة واللغويين عناية واضحة بالتأليف وانسجام الألفاظ ، فضلًا عن مراعاة المعاني المناسبة كما سنرى عند سيبويه وأبي سعيد السيرافي وأبي هلال العسكري وغيرهم.

أما نقاد الأدب فقد اتجهوا في أغلب عملهم إلى النص في جملته لاسيما الجانب الأسلوبي ، ومن هنا كان عليهم أن يستعملوا مصطلحات تتناسب مع اهتمامهم بالسياق المتصل ، فجاءوا بمصطلحات تختلف عن مصطلحات النحاة مثل: النظم والتأليف والسبك والرصف والترتيب والنسج آخذين ذلك من أوجه الشبه بين النص وبين القلائد والمعادن والأبنية والملابس وهي أمور تشبه في تكوينها بناء النص من حيث الإتقان والجمال[٦]. بل كان هناك خلاف في صحة إطلاق هذا المصطلح على الكلام ، فقد ذهب أبوهلال العسكري إلى أن الرصف هو بمعنى الإحكام ولكن لَا يسْتَعْمل الرصف إِلَّا فِي الْأَجْسَام، أما الإحكام والإتقان فيستعملان فِيهَا وَفِي الأعراض، فَيُقَال: فعل متقن ومحكم وَلَا يُقَال فعل مرصوف

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم: ١٤٣، ١٤٤

(٢) المحكم والمحيط الأعظم ٨/ ٣٠٩

(٣) ينظر: نظرية الرصف/٥٠

(٤) ينظر: اجتهادات لغوية/ ٤٥

(٥) ينظر: م.ن

(٦) ينظر: م.ن

إلا أَن هناك من جوز هذا الاستعمال فقَالُوا: رصف هَذَا الْكَلَام حسن وَهُوَ مجَاز لا يتعدى هذا الموضع[١].

وعلى الرغم من أن المعنى الاصطلاحي لا يتوقف تماما على مضمون المعنى اللغوي نجد أنه من الواضح أن الرصف النحوي يتحقق من خلال أمور يتصل كلها بتأليف عناصر الجملة مثل: التضام والرتبة والربط. لقد كان التأليف أحد المصطلحات التي وردت في ما نقل عن القاضي الجرجاني، ومن ثم يمكن أن يعد التأليف مرادفًا للرصف ، كما ذهب إلى ذلك تمام حسان[٢] .

وبينت معاجم المصطلحات اللسانية أيضًا أن الرصف يتضمن التتابع والانتظام (collocation) ، يقول عنه محمد مبارك: ((وهو أن تتابع الكلمات في جملة وفقًا لنظام اللغة التي هي منها)) [٣]، هذا يعني أن تتراصف الوحدات اللسانية فيما بينها مشكلة بهذا التراصف بناءً ونسقًا محكمًا و منسجمًا وهوما يجمله كل من ستيفن أولمان و جون فيرث صاحب النظرية السياقية تحت مصطلح الرصف ((collocation) ، ومثاله: كأن تتراصف كلمة (ساعي) مع البريد، أو (رجل) مع البريد في حين لو استبدلنا كلمتي (ساعي) أو(رجل)بامرأة أو طفل ، فإنها حتما ترفض التجاور والتساوق معها [٤] .

الرصف عند علمائنا القدماء :

يعتقد البعض أن نظرية الرصف نتاج غربي، في حين يؤكد الآخر على أن هذا مجرد طمس لمعالم التراث العربي الإسلامي والتنكر لحقائقه، فقد كان للعرب المسلمين فضل السبق في الحديث عن تساوق الكلام وانسجامه وتآلفه وتلاؤمه، ومن الذين يؤكدون هذا الرأي عبد الفتاح البركاوي فيقول :

(أما اللغويون العرب، فإنهم ضربوا بسهم وافر في هذا المجال وكشفوا عن المجالات المختلفة التي تستعمل فيها ألفاظ بأعينها، بحيث لو استعمل لفظ في غير ما يتلاءم معه كان ذلك خطأ)[٥].

وأشار البركاوي إلى ما قاله الثعالبي في فقه اللغة ، الباب الثالث في: الأشياء (تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحْوالها): ((لا يُقالُ كأسٌ إلاّ إذا كان فيها شَرَاب وإلا فهي زُجَاجة. ولا يُقَالُ مائدةٌ إلاّ إذا كان عليها طَعَامٌ وإلاّ فهي خِوَان. لا يُقالُ كُوزٌ إلا إذا كانَتْ له عُرْوَة وإلا فهو كُوب. لا يُقالُ قلَمٌ إلاّ إذا كانَ مبريًّا وإلاّ فهو أُنْبوبَة. ولا يُقالُ خاتَمٌ إلاّ إذا كانَ فيه فَصّ وإلاّ فَهُوَ فَتْخَةٌ. ولا يُقالُ فَرْوٌ إلاّ إذا كانَ عَلَيْهِ صُوف وإلاّ فَهُوَ جِلْد ولا يُقالُ رَيْطَةٌ إلاّ إذا لم تَكُنْ لِفْقَيْنِ وإلاّ فَهِيَ مُلاءَة ولا يُقال أَرِيكة إلاّ

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية/ ٢١٢

(٢) ينظر: اجتهادات لغوية/ ٤٦

(٣) معجم المصطلحات الألسنية، فرنسي إنجليزي عربي/٥٢.

(٤) ينظر: فصول في علم اللغة التطبيقي علم المصطلح وعلم الأسلوب/ ١٣٨-١٣٩ ، نظرية الرصف/٥٠

(٥) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث/٧٢.

إذا كانَ عليها حَجَلَةٌ وإلاّ فهيَ سَرِير))[١]، وقد كانت موضوعات فقه اللغة تدور حول هذه الموضوعات التي هي قريبة من مصطلح التوارد في الدرس اللساني الحديث. ولو تأملنا كتب تراثنا العربي سنجد أن هذا الكلام على حق، ويمكن اعتبار أن الأصول الأولى لنظرية الرصف نشأت على يد علماء اللغة العربية، فقد مثل كل من اللغويين والنحويين والبلاغيين في مصنفاتهم لرصف الوحدات اللسانية في اللغة العربية، ومن أبرز العلماء الذين اعتنوا بقضية الرصف:سيبويه (ت١٨٠هـ)، وبشر بن المعتمر(ت٢١٠هـ)، والجاحظ (ت٢٥٥هـ) وأبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) ، وأبو هلال العسكري (ت٣٨٢هـ) وابن فارس(ت ٣٩٥ هـ) والباقلاني(ت ٤٠٣هـ) والثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ).

سيبويه (ت١٨٠هـ) :

أبدأ بسيبويه الذي يشير إلى الاستقامة من الكلام قال:((فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدًا ، وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلتُ الجبلَ، وشربت ماء البحر " ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ)) [٢]، ويقصد سيبويه بالكلام المستقيم هنا: الكلام المستقيم استقامة نحوية[٣]. فهذه التقسيمات الخمسة للكلام تدور حول الاستقامة ورصف الكلام والكلام عند سيبويه هو بمعنى: الجمل قسمان: أحدهما أطلق عليه بأنه مستقيم، والاخر: المحال، وتحت كل منهما فروع كما يتضح في الشكل الاتي:

الكلام=(الجمل) [٤]

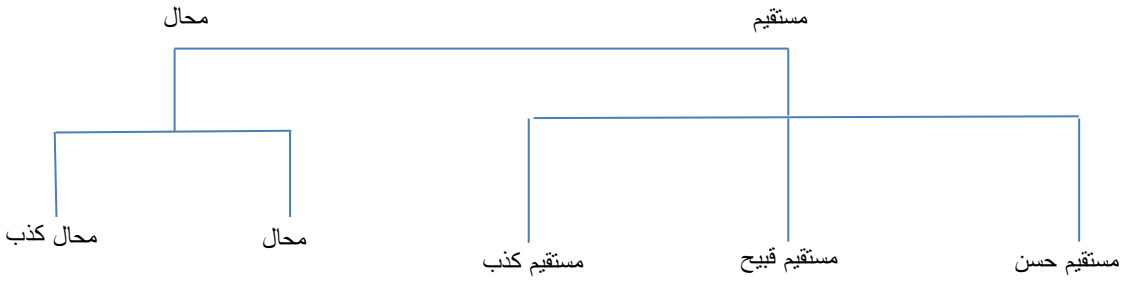

(١) فقه اللغة وسر العربية/ ٣٤

(٢) الكتاب١/ ٢٥

(٣) ينظر: النحو والدلالة/ ٦٦

(٤) ينظر: م. ن

وسيبويه لم يبين من هذه الأنواع إلّا المحال من الكلام و(المستقيم القبيح)، واعتمد على الأمثلة وحدها في تحديد ما يريده بالمصطلحات الأخرى. والمقصود من الكلام المستقيم بناء على تمثيل سيبويه وتعريفه (للمستقيم القبيح) هو: الكلام المستقيم استقامة نحوية ودلالية، فالكلام المستقيم نحويًا: هو المستقيم من حيث التركيب و تتوزع استقامته على ثلاثة أنواع هي: المستقيم الحسن والمستقيم الكذب والمستقيم القبيح ، فكل جملة صحيحة نحويا تعد جملة مستقيمة ولكن الحكم على هذه الاستقامة بالحسن أو بالكذب يتعلق بالمعنى الذي تفيده عناصر الجملة عندما تتراصف وتترابط نحويًا، وفي المثالين الأولين اللذين ساقهما سيبويه توافق وتراصف بين عناصر بناء الجملة[(١)]. وقد اتفق المثالان كذلك مع الوضع النحوي الذي تقرره البنية الأساسية بحيث وضع كل مكون وما يمثله من الأصوات المنطوقة في موضعه الصحيح وهو وضع يسمح به نظام اللغة،أي أنه سليم من حيث التركيب، ولذلك جاء هذان المثالان من الكلام المستقيم الحسن الذي لم تتصادم فيه قواعد الاختيار في الوظائف النحوية والمفردات بدلالتها الأولية، وأما المثالان اللذان ساقهما سيبويه للكلام المستقيم القبيح ففي هذين المثالين توافقت عناصر الاختيار بين عناصر بناء كل جملة، فلم يحدث تصادم بين الوظائف النحوية في علاقاتها مع دلالة المفردات التي شغلتها، ولذلك لا تصادم في الإخبار بجملة يأتيك عن المبتدأ زيدٌ غير أن بعض هذه العناصر قد فصلت عن بعضها الآخر فلم توضع الموضع الصحيح الذي يحدده لها نظام اللغة فجاءت الصورة المنطوقة وقد اختل بها شرط الورود النحوي بحيث صار(قد + اسم) و(كي + اسم). وهذا تركيب غير مسموح به في نظام العربية، ولكنه لا يؤدي الى خلل معنوي في صحة العلاقات بين أجزاء الجملة[(٢)] .

ولهذا السبب وصف هذا الكلام بالقبح مع كونه مستقيمًا. وهنا نجد أن معنى (الاستقامة) في هذين المثالين يعود الى استقامة الدلالة ، إذ لم تتأثر بالخلل النحوي الذي طرأ على بناء الجملة من الفصل بين الأدوات فيها، وهي لا تدخل إلا على الفعل والفعل الموجود في الجملة ، وهذا الفصل درجة من درجات الخلل النحوي في وضع العناصر[(٣)]. وقد عرف سيبويه الكلام المستقيم القبيح بأنه:(وضع اللفظ في غير موضعه)، وهو ما يشير إليه بعض العلماء بسوء الرصف. ولعل استخدام اللفظ في هذا الموضع إشارة الى أن الخلل فيه أو القبح خلل لفظي وليس خللًا معنويًا ولهذا بقي الكلام على وصفه بانه كلام مستقيم وإن كان قبيحًا[(٤)].

---

(١) ينظر: م. ن
(٢) ينظر: م. ن
(٣) ينظر: م. ن
(٤) ينظر: م. ن

وهنا ينبغي التأكيد على أن سيبويه يعطي الاختيار من المفردات ،أو من الحقول الدلالية المناسبة التي تقبل التوائم والاستجابة أهميه كبرى لا تقل عن اهتمامه باستواء النظام النحوي، فليس النظام النحوي نظامًا معدًا للفراغ ، ولكنه معد لأن تتحقق في علاقاته المفردات الملائمة بدلالاتها الأولية التي تتفاعل مع الوظائف النحوية تفاعلًا يكسبها معناها المناسب ويتحقق به (المعنى النحوي الدلالي) [١] .

بشر بن المعتمر(٢١٠هـ):

قال بشر بما نقله الجاحظ عنه في صحيفته وهو يتحدث عن ثلاث منازل ينبغي أن يكون فيها الأديب أو المتحدث قال:((فأن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفا، .....فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تَصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحُل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تُكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها))[٢]، وهكذا يشير بشر إلى أن وضع اللفظة في غير موضعها يؤدي إلى اضطراب في الكلام، فالكلمة لها موقعها المناسب فعلينا أن نختار الكلمة المناسبة في المكان المناسب.

الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) :

أما الجاحظ فقد أكد على ضرورة تخير الألفاظ فقال في هذا الباب : ((قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة)) [٣] .

فالجاحظ يضع فاصلًا دقيقًا في تآلف الوحدات اللسانية وتلاؤمها مع بعضها البعض ، بمراعاة معناها ومجالها الدلالي، فالكلام يتعالق بعضه ببعض في حالات ويتنافر في أخرى[٤]، فيذكر أن لفظة الجوع لم تذكر في القران إلا في موضع العقاب، وأضيف:(والابتلاء) كذلك مثل: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ

---

(١) ينظر: م. ن

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٧

(٣) م.ن ١٣٧/١

(٤) ينظر:البيان والتبيين ١/ ١٣٧

وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ) [١] أما العقاب فمثل قوله تعالى: (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ) [٢] ، فنلاحظ كيف أن القرآن الكريم استعمل لفظة الجوع في مقام العقاب والابتلاء ، أما لفظة السغب أو المسغبة فلم يستعملها إلا في مقام القدرة والسلامة كقوله سبحانه: (أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) [٣] . ومما أثر عن الجاحظ منذ البداية عبارة : (حسن الرصف)، وهو أول من استعملها في كتابه البيان والتبيين حيث وصف أبياتًا من شعر العجاج وشعر الطّرمّاح وأشعار هذيل بذلك[٤].

أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) :

وأثر أبي سعيد في هذا المجال يبدو واضحًا حينما أطلق:(معاني النحو) وقال: إنها بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وكلام أبي سعيد يفهم منه أن حركات اللفظ تشمل: الاسم والفعل والحرف[٥]، فهنا تناول أبو سعيد السيرافي الاسم والفعل والحرف، وأكد على ضرورة الربط والرصف بين الألفاظ، والدليل قال لمتي بن يونس في مناظرته التي ذكرها اللغويون حينما قال له متي: ((يكفيني من لغتكم هذا: الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض هذّبتها لي اليونان، قال ابو سعيد: "أخطأت، لأنك في هذا الاسم، والفعل، والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها)) [٦].

قصد أبو سعيد : أن ترتيب الألفاظ ترتيب من نوع خاص بحيث لا يكون ترتيباً ظاهرياً، أو شكلياً، وإنما يكون ترتيباً تراعى فيه العلاقات النحوية، على حسب ترتيبها في طبائع أهلها، أو في نفوسهم، ومعنى هذا: أن عملية الترتيب كانت تتم في طبائع القوم، أو غرائزهم، أو نفوسهم، ثم تأتي عملية الترتيب والتنظيم والرصف في النطق على ما يقع في النفس[٧].

أبو هلال العسكري (ت٣٩٥) :

---

(١) سورة البقرة /١٥٥

(٢) سورة النحل/ ١١٢

(٣) سورة البلد/١٤

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني/ ١١٩

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني/ ١١٩

(٦) معجم الأدباء٢/٨٩٩

(٧) ينظر: دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني/ ١١٩

ومن الذين استعملوا هذا المصطلح أبو هلال العسكري، في كتابه: (كتاب الصناعتين) ،وكتابه: الفروق اللغوية خير شاهد على عنايته باختيار الالفاظ وتلمس الفروق البيانية بينها، وحينما قسم الكلام المنظوم على ثلاثة أقسام: الرسائل، والخطب، والشّعر، بين أن جميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب .[١]

وأوضح أن من تمام حسن الرصف أن يخرج الكلام مخرجًا يكون له فيه طلاوة وماء، وربما كان الكلام مستقيم الألفاظ، صحيح المعاني كما مر بنا في قول سيبويه ؛ ولكنه لا رونق له ولا رواء؛ ولذلك قال الأصمعي لشعر لبيد: كأنه طيلسان طبراني، أي هو محكم الأصل ولا رونق له [٢].

وقال ابو هلال:((وحسن الرصف (أي النظم): أن توضع الألفاظ موضعها، وتمكّن في أماكنها؛ ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، إلا حذفاً لا يفسد الكلام؛ ولا يعمّي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها)) [٣]

((والكلام إذا خرج من دون تكلّف وكد وشدّة تفكر وتعمّل كان سلسا سهلا، وكان له ماء ورواء ورقراق، وعليه فرند[٤]، لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه)) [٥] . وذكر أبو هلال أن حسن الرصف والتأليف يزيد المعنى وضوحًا وشرحًا، وسوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب نوع من التمويه، فلا تظهر على الكلام طلاوة، وإذا كان المعنى وسطًا، ورصف الكلام جيّدًا كان أحسن موقعًا، وأطيب مستمعًا، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى، وإن لم يكن غالي الثمن، وإن اختلّ نظمه فضمّت الحبّة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقًا ثمينًا[٦] ثمينًا[٦] . ومثل على حسن الرصف بقول الحطيئة :

هم القوم الذين إذا اعترته من الأيام مظلمة أضاءوا[٧]

وكقول أشجع (ت نحو ١٩٥ هـ)

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيّام

وإذا سيوفك صافحت هام العدا طارت لهنّ عن الفراخ الهام

---

(١) كتاب الصناعتين/ ١٧٠

(٢) م. ن

(٣) م. ن

(٤) م. ن

(٥) فرند : ثوب

(٦) كتاب الصناعتين/ ١٧٠

(٧)ينظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت(ت٢٤٦هـ) /٣٤

برقت سماؤك للعدوّ فأمطرت هاما لها ظلّ السيوف غمام
رأى الإمام وعزمه وحسامه جند وراء المسلمين قيام[١]

وأوضح العسكري أن في هذه الأبيات مع جودتها رونقا ليس في غيرها مما يتساوى معها في صحة المعنى وصواب اللفظ[٢].

ثم بين بعد ذلك أن سوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال فى نظمها، ومن الملاحظ – أيضاً – أن أبا هلال قد استعمل كلمة (الرصف) مكان كلمة (النظم) في قوله:(حسن الرصف) و (سوء الرصف)[٣]

وهناك مسألة أشار إليها أبو هلال تتعلق بتناول المعاني نفسها، فالمعاني ليست حكرا على أحد ولا ضير في تناولها وإعادتها ولكن بألفاظ جديدة مرصوفة ، فليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممّن تقدّمهم والصبّ على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم– إذا أخذوها– أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممّن سبق إليها[٤]. فالمعاني فالمعاني مشتركة بين الناس، فربما وقع المعنى الجيّد للنبطي والزّنجي، وإنما تتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها، وقد يقع للمتأخر معنى سبق إليه من غير أن يعرف ولكن كما وقع للأوّل وقع للآخر وهذا أمر عرفه أبوهلال من نفسه، وذلك أنّه عمل شيئا في صفة النساء:

سفرن بدورا وانتقبن أهلّة[٥] وظن أنه لم يسبق إلى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت، إلى أن وجده بعينه لبعض البغداديين[٦]؛يقول ((فكثر تعجّبي، وعزمت على ألّا أحكم على المتأخّر بالسّرق ، من المتقدّم حكما حتما))[٧].

الخطابي(ت ٣٨٨هـ) :

يشير الخطابي في رسالته إلى إعجاز القران وما امتاز به من أمور فذكر أن الكلام يقوم على:

---

(١) ينظر:كتاب الصناعتين/ ١٧٠
(٢) ينظر: م.ن
(٣) ينظر: م.ن
(٤) ينظر: م.ن
(٥) ينظر: م.ن
(٦) ينظر: م.ن
(٧) كتاب الصناعتين/ ٧١

((الأشياء الثلاثة: لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم. وإذا تأَملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاءَ على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها)) [١]. فبين أن من إعجاز القرآن التأليف الحسن والتلاؤم والتشاكل والترتيب البديع في رصفه.

ابن فارس(ت ٣٩٥هـ) :

وعرف أحمد بن فارس في هذا الميدان من كتابه: (متخير الألفاظ) وبين أنه اختياره هذا الاسمَ هو بسبب ما أودعه من محاسن كلام العرب، ومستعذب ألفاظها وكريم خطابها منظوم ذلك ومنثوره[٢]، ومن ذلك: جاء في أسماء القمر: ما لم يستدر فهو هلال، فإذا استدار فهو قمر، ويقال حينئذ: استدار وحجّر، وإذا استوى ليلةَ ثلاث عشرة فهي ليلة السواء، وبعدها ليلة البدر، وأفتقَ القمرُ إذا أصاب فرجةً من السحاب فخرج[٣] اذن كان علماؤنا يعتنون بتخير الألفاظ في مؤلفاتهم.

الباقلاني(ت٤٠٣هـ) :

وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا[٤] ثم عرض لنظم القرآن ونهجه، فقال: ((فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه)) [٥]

عبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١هـ) :

أما عبد القاهر الجرجاني، فإنه يجعل الرصف ينضوي تحت مصطلح النظم، ذلك أن النظم أوسع وأشمل من مصطلح الرصف، فالرصف ما هو إلا جزء من نظم الكلام كونه يُخضِع الوحدات اللسانية للعلاقة التلاؤمية أو الأفقية (rapporte syntagmatic)في حين أن النظم يشمل انسجام وتلاؤم الوحدات اللسانية من حيث المبنى والمعنى ضمن التركيب[٦]، يقول الجرجاني في معرض حديثه عن

---

(١) ثلاث رسائل في اعجاز القران للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرانية والنقد الأدبي/٢٧

(٢) متخير الألفاظ/ ٤٣

(٣) ينظر: متخير الألفاظ/ ٤٣

(٤) ينظر: إعجاز القران للباقلاني/ ٣٧

(٥) إعجاز القران للباقلاني/ ٧٦

(٦) ينظر: نظرية الرصف/٥٠

النظم: ((النظم إذن، تأليف، أو جمعٌ وإضافة بمثل الاقتران، في نمط أو نسَقٍ معين يبعث على الرضى والارتياح، كنظم اللؤلؤ، والخرز، والكلام ومنه الشعر)) [١].

مما سبق يتبين أن علماءنا كانوا يعتنون بالكلام المؤلف، ويشبهون الكلام المنثور أو المنظوم بالعقد الثمين فلابد من اختيار اللفظة المناسبة؛ لأن اللفظين قد يلتقيان في الدلالة إلى درجة أن أحدهما قد يسد مسد الآخر، ولكن الفروق الدلالية تكشف أن أحدهما يكون في موضع أولى به من الآخر ،ولابد أن يراعى في اختيار الألفاظ صفات اللفظة المناسبة من حيث السهولة وخفتها على اللسان، وقوتها في أداء المعنى الذي سيقت لأجله ، ثم الربط والرصف الذي يضفي على الكلام رونقًا وبهاء، ثم مناسبتها للسياق والمقام الذي وضعت فيه.

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني/ ٢٦

قائمة المصادر والمراجع :

١) اجتهادات لغوية – الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) -شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ)تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣) إعجاز القران-أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر ، دار المعارف – مصر ط٥ ١٩٩٧م .

٤) البيان والتبيين – عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت-١٤٢٣ هـ.

٥) تهذيب اللغة- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ) تح: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

٦) ثلاث رسائل في اعجاز القران للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرانية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، دكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر١٩٧٦م .

٧) دلائل الإعجاز في علم المعاني – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ) تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- الدار النموذجية ط١

٨) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني – حسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجيُ رئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر (ت ١٤٢٩ هـ)، دار الطباعة المحمدية القاهرة – مصر ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.

٩) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق-تأليف د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دار الكتب ١٩٩١م

١٠) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق : الدكتور عزة حسن، دمشق ١٣٧٩هـ- ١٩٦٠.

١١) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت(ت٢٤٦هـ) دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط١ ١٤١٣هـ.

١٢) العين -أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال.

١٣) الفروق اللغوية الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو٣٩٥هـ، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر (د.ت).

١٤) فصول في علم اللغة التطبيقي علم المصطلح وعلم الأسلوب فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

١٥) فقه اللغة وسر العربية –عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي ،إحياء التراث العربي ،ط١/ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
١٦) كتاب الصناعتين أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العنصرية – بيروت١٤١٩ هـ.
١٧) الكتاب –عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
١٨) متخير الألفاظ– أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: هلال ناجي، مطبعة المعارف، بغداد، ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م
١٩) المحكم والمحيط الأعظم المحكم والمحيط الأعظم– أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي(ت: ٤٥٨هـ) تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م
٢٠) مصطلح الرصف في الدرس اللغوي : مدخل إلى تحديد المصطلح محمد عبد اللطيف حوليات آداب عين شمس–المجلد ٤٤(ابريل–يونيو٢٠١٦)
٢١) معجم المصطلحات الألسنية، فرنسي إنجليزي عربي، دار الفكر اللبناني، بيروت ، ط١، ١٩٩٥م.
٢٢) مجمل اللغة لابن فارس –أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت ط٢ – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.
٢٣) النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي– الدلالي– الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق، ط١ ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
٢٤) نظرية الرصف وافاق بناء معجم تاريخي للتعبير الاصطلاحي العربي– علوش كمال، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر) مجلة الأثر، العدد٢٣/ دسمبر ٢٠١٥م .